اتجاهات جديدة في الرواية الأوروبية

بقلم: د. سهير القلماوى

ولكن يخفف نوعاما من طغيان الأشياء على الانسان فى الرواية الحديثة ، بل من امتيازها بشخصية خاصة تناطح الشخصية الانسانية وتنازعها مجالها وأهميتها ، اعتراف الروائيين الجدد بأن كل هذه الأشياء انما تحمل مبررات دخولها الرواية من كونها من مقتنيات الانسان . انه الانسان هو الذى يضفى عليها حبه واهتمامه عندما يتلقاها بمختلف الحواس فى مختلف الظروف . ولذلك نجد روائية مثل « مرجريت دوراس » فى روايتها « بعد ظهر السيد آندسماس » تصف هذه الأشياء فى غناء شعرى موسيقى فاذا بها تكتسى من هذا الاسلوب المتغنى فى الوصف حلة ملائكية أثيرية منسوجة من ظلال خطر الموت والفناء الزاحف عليها .

وفى هذا الجو نرى ان موضوعات السياسة والعلاقات الدولية والتجارة والصناعة كلها تأخذ أبعادها الحقيقية فتتضاءل أهميتها أثناء عملية ادراجها ضمن الاهتمامات الشخصية الصغيرة التى تحفل بها حياتنا اليومية . ان الحدث القصصى نفسه يصبح عاديا غير جذاب ، يصبح أوضح وأصرح من أن نضيع فيه الوقت ؛ والموضوعات الجنسية تأخذ أيضا وضعها الحقيقى فتدخل ضمن ما يهتم به الانسان ، وتصبح بعضا من شواغله وان تزعم أحيانا هذا البعض .

وكثيرا ما نرى فى موضوعات الجنس مجال سخرية أو وسيلة اضحاك عندما يبرز الروائى بعض المظاهر العادية المعروفة التى يتعرف عليها القارىء بسرعة لأنها مألوفة عادية ، ولكنها رغم عاديتها لم يلحظها الروائيون القدامى مع انهم قتلوا الموضوع بحثا . ان مجرد تغيير الزاوية التى منها ننظر الى الموضوعات ، أو مجرد تغيير سلم ترتيب هذه الموضوعات أو مجرد تحوير العلاقات بين هذه الموضوعات بعضها البعض ، ان مجرد هذا يفجر أمامنا مواقف جديدة فريدة ، بل انه يفجر عالما آخر يذخر بالغرائب والعجائب . ومن هنا يحس الروائى الجديد بالأمل المنعش الذى يحفزه على مزيد من التجديد .

ان فى الحياة معينا لا ينضب من المواقف : من العواطف والمعانى تتجلى فى كل هذا الخضم المتروك من صغائر الأعمال أو صغير العواطف • ان دقتها وصغرها بل تفاهتها أحيانا لا تمنعها من أن تكون ممتعة رقيقة حرية بالتأمل والتصـــوير • ان هذه الأشياء كلهـــا قد ارتفعت الى نفس المستوى الانسانى أو لقد نزلنـا نحن الى مستواها ، وفى الحالين أصبحنا نراها على نفس المستوى ، وانه لمن الممتع حقا ان نراها بعد أن تضخمت قيمتها وكبرت فى هذا الوضع الجديد ، فأصبحت مع الانســان على مستوى واحد •

ويؤكد « ناتالى ساروت » ان مستقبل الرواية ليس فى محاولة التماس أدوات تصوير جديدة أو فى تطوير « تقنية » الفن الروائى نفسه ، وانما مستقبلها الحق فى هذا الانفساح لكل شىء فى فتح أبوابها الى كل شىء والى مالا نهاية •

ان الخيل الجديدة والغرائب والشذوذ لا يمكن أن تحدد شباب الرواية ، وانما الرواية تتجدد حين نؤمن ان تقدمها وتطورها انما هو متداخل فى تطور الانســان متشابك مع تقدم الحياة الانسانية ؛ بل ان تقدمها مؤثر فى هذا التطور مكيف لهذا التقدم ، لا بمجرد القدرة على تعيين الطريق أو الاشارة اليه ، وانما بالمساعدة الايجابية على أن تجتاز الانسانية هذا الطريق • فهى تعين الانســان عن قرب على أن يخطو الى مستقبل أرقى وأكثر تقدما •

لذلك ينظر الروائيون الجدد الى الرواية على أنها أرقى من مجرد وسيلة متعة فنية • انها عمل جاد فنى بل علمى أيضا • ويكتب « ميشال بوتر » مقالا بعنوان « الرواية بحث علمى » فيقول : « ان الرواية تقرير علمى عن شىء أهم من مجرد الادب انها طريقة أساسية لمعرفة الحقيقة » •• اننا نسمع تقريرات عما حدث أو قيل أو فعل فى البيت أو فى الشارع أو فى مكان عملنا نسمعها صباح مساء ونسمعهـــا ممن نقابلهم أو ممن نقرأ لهم ، ولكن الرواية ليست تقريرا من هذه التقريرات اليومية عن الأقوال أو السلوك • انها تختلف اختلافا بينا • ذلك انه ليس من الممكن أبدا أن نحقق فيما اذا كانت هذه الأحداث أو الأقوال قد حدثت أو قد قيلت فعلا • اننا نثق بصدقها من صيغة التعبير عنها نفسها • ومن هنـا تأتى أهمية الشـــكل فى الرواية • ولقد تحجر هـــذا الشكل فى الرواية التقليدية وأصبحت الرواية التى لا تثير أى نوع من التساؤلات هى الرواية المقبـــولة الرائجة • ولكن عصرنا يتطور بسرعة مذهلة • ولا يمكن أن يلائمه هذا النوع من الروايات ؛ بعد أن تطور العـالم كل هذه التطورات • وكما أن تطور العلم يحتاج دائما أبدا الى الحديث من الآلات ، والجديد فيها اليســـير قدما نحو مزيد من المكتشـفات والمخترعات فكذلك الرواية تحتاج الى تغيير ضخم فى أدواتها لتصل الى أحدث ما يمكن أن يمدنا به العصر • من

أدواتها أن تكشف عن هذه العلاقات المعقدة والصلات الخفية بين البشر ، ثم تصفها بدقة وتقدمها تقديما علميا حديثا .

وينزل « بوتر » فى هذا المثال باللائمةعلى الروائيين الذين لا يريدون أن يكسروا قيود التقاليد القديمة والعادات المتحجرة البالية لانهم لا يريد وننللقارىء الا متعة سهلة بحيث لا يجهد نفسه .

بل انه ليأسف لأن الروائى الذى يساير القارىء أو يمشى على سنن القديم والعتيق ما يزال يحرز انتصارات سهلة سريعة . مع انه بذلك يساهم مساهمة مؤسية فى أن تظل الانسانية تتحسس طريقها فى الظلام . انه لا يكلف نفسه مؤونة اثارة شكوك القارىء من حيث نظرته الى الحياة أو تفسيره لها ، لأنه يورث القارىء الكسل سعيا وراء متعة سهلة . وليس هذا هو قارىء اليوم أو القارىء الذى نريده أن يكون . ان هذه التجديدات فى الرواية ليست انحرافا عن الواقعية أو بعدا عن الحقيقة ، وانما هى الشرط الأساسى للوصول الى واقع أعمق وحقيقة أدق . ذلك ان كل شىء حولنا يسير بفضل العلم نحو المعرفة الاعمق والأدق ؛ فلماذا تتخلف الرواية فى عصر العلم وتنكر آثار العلم الذى اثر فى كل شىء . ان الرواية الحديثة أشرف من أن تكون مجرد متعة ، ان لها دورا رئيسيا فى النظام الاجتماعى الجديد . انها تقدم بطريقتها بحثا علميا دقيقا منظما فى سبيل فهم حقيقة الانسان وحقيقة الحياة الانسانية .

والرواية الجديدة كما يراها النقاد الجدد هى الوسيلة الأفعل لرسم الدور الذى يجب أن تلعبه « الأنا » من الناحية الانسانية فى حياة البشر . ان « الأنا » الانسانية تتجاوب أصداؤها فى النفس ذاتها كما تتجاوب اصداؤها مع الغير ؛ هذا الغير الذى نحدثه ويحدثنا ننصت اليه وينصت الينا . هذا الغير الذى نصبح واياه شيئا واحدا حينا وشيئا متميزا عنه حينا آخر ... شيئا متصلا بنا ومنفصلا عنا فى آن واحد . ان الانسان هو نفسه وهو غيره فى ذات الوقت . فالأحوال العقلية والمواقف الشعورية والسلوك كلها تكون الانسان الفرد ، وكلها فى الواقع وعند الدرس الدقيق مجال مشاركة وتشابه بين الناس أجمعين . انها تميز الفرد ولكنها تشركه مع غيره فى الوقت نفسه . ولذلك يستطيع الروائى ان يستخرج من ذات نفسه أدوارا كثيرة من مجموع هذه الأدوار التى تكون نفسه . وهذه الأدوار تتجاوب وتتفاعل مع القارىء الذى يجد فيها تسرية لنفسه . انه يجد نفسه يشاركها فى الرفعة والنحسة فى الصعود والهبوط أمام مختلف المؤثرات . ولتكن أسماء هذه الشخصيات ما تكون ، بل ولتكن بلا أسماء بالمرة .

لقد وصل الانسان الى مرتبة الانسانية عن طريق الحركة ، وحركة الصوت خاصة . ويعود الفضل الى مجموعة عصبية والى عقل يستطيع أن يتلقى الصوت أو

المؤثر ، فاذن من الممكن أن يتجاوب الانسان مع غيره ، واذن غيره أيضا من الممكن أن يتجاوب معه • يتبادل مع غيره المؤثرات ثم الانفعال بها • واستطاع الانسان أن يصل الى العلم والى أن يرقى به يوم استطاع أن يهذب هذه الحركات وان يرصدها ويحددها بحيث أصبحت تعنى للفرد ما تعنيه لغيره ، تعنى للمتلقى ما تعنيه بالنسبة لمن تصدر منه • وبذلك استطاع الانسان أن يصل الى نوع من التجاوب المركب الدقيق • ولكن الحديث مايزال يدور بين الناس فى غفلة من العلم ، أو فيما يجاوز نطاقه • هذا العلم الذى ما يزال يغير العالم ويعيد صنعه قد لا يعرف شيئا عن أسرار هذا الحديث الذى يدور بين الناس وعن أسرار ما يثير فى الناس حديث بعضهم الى البعض من مؤثرات •

ان التقدم فى وسائل الالتقاء بين الناس هو الذى ارتقى بالانسان • ولكن هذا الالتقاء يتعدد ويتنوع ، والذى يعنينا فى الرواية هو الاتصال أو الالتقاء الذى يثير تجاوبا انسانيا •

واننا دائما نحتاج الى صاحب كلمة ليبلغ الانسان ما يراد له أن يعرف ذلك انه لو صدرت الكلمة عن غير الانسان معبرة عن دولة أو شركة أو نحو ذلك فان الاتصال عندئذ يفتقد أو لا الا على درجة دنيا ضعيفة • اننا نريد عالما يتحدث فيه الانسان دائما الى الانسان يتحدث عما يحس وعما يهمه ويهم الآخرين • والتقدم فى الحياة لا يحدث الا نتيجة الاتصال بين الناس ، نتيجة الحديث عن طريق مشاعر الفرد الطبيعية بمثلها التقاء عند الغير • ولقد برعت « ناتالى ساروت » فى هذا الاتجاه ، فهى تصف كل شىء خاص وذاتى ولكن مكتشفاتها هى فى ابراز ما هو عام ويشترك بين الجميع وهو فى ذات الوقت شاذ ومتفرد • انها تستطيع أن ترينا الحب فى الكراهية والبهجة فى الشىء المنفر الغريب •

والانسان اجتماعى بطبعه كما يقول الفلاسفة ؛ والمجتمع يتالف من الذوات أو مجموعات الأنا ؛ ولكن لا يتالف منها كما عدديا • فلكل انسان صوته الخاص وطريقته فى التعبير والحديث ولكنه يستعمل لغة الجماعة • ولقد شهر دستوفسكى الروائى الروسى الأشهر بمهارته فى الكشف عن المتناقضات فى كل ما كنا نظن انه متماسك متناسب ومتسق بل كل ما كنا نظنه خاضعا للمنطق وللعقل فى السلوك الانسانى لقد برع فى تصوير الارتدادات المحيرة بين الكبرياء والذلة فى شخصية الأب فى رواية « الاخوة كارامازوف » • انها كلها اشعاعات هذه الرغبة الملحة الجامحة المركبة فى طبيعة الانسان التى تدفعه الى أن يتصل بأخيه الانسان • وفى ظل العلم تفهم هذه الغريزة فهما دقيقا جيدا • ان جوهر الطبيعة فى النفس البشرية هو النزعة الاتصالية وتطور هذه الطبيعة ونماؤها لا يتم الا بالتاثر وبالتاثير ؛ أى لا يتم الا عن

طريق الاتصال بالغير واتصال الغير بها • وكما انه لابد للجسد من ماء وهواء فكذلك لابد للنفس من احتكاك واتصال • فان لم يكن اتصال بالحب فليكن بالكره ، وان لم يكن بالاحترام فليكن بالازدراء أو بالخوف أو بالشفقة أو بأى شىء ، ولكن النفس تنزع الى الحب والى الاحترام وتتوق اليهما •

ان النفس البشرية دائما عطشى الى من تحدث ، الى من تتعامل معه على أى صعيد وبأى شكل • ان الناس كما تقول « ساروت » يجتمعون على الحاجة الملحة لأن يلفتوا الى ذواتهم الأنظار ، لأن يتصلوا بالغير ، لأن يحس الناس بوجودهم ويدخلوهم فى زمرتهم • وهذه العملية الطبيعية سهلة بالنسبة للبعض ؛ ولكن البعض الآخر يضطر الى المبالغات التاسية ، بل قد يدفع الى الجريمة نفسها ليظفر بهذا الاتصال • وترى ساروت أن أكثر من أثر فى الرواية الأوروبية من هذه الناحية هو الكاتب النمسوى « كافكا » ان بطله يتضاءل حتى ليصبح مجرد حرف « ك » • بل ان مطامعه المشروعة فى أن يحب أو يصادق أو يزامل تتضاءل فتصبح مجرد الرغبة فى أن جهوده كلها توجه نحو ان ينتمى الى أى شىء ان يتصل بأى احد أن يبرىء نفسه من تهمة لا يعرف عنها شيئا • وجهوده كلها تبوء بالفشل • فهو لا يعرف مما يبرىء نفسه ويعجز عن أن يتصل بأحد • انه لا وجود له ولا مكان لوجوده فهو مضطر الى أن يكون لا شىء ؛ لا أحد ، سواء كان بريئا أم غير برىء • وبهذا ومن هذا يطل علينا فجر معسكرات الاعتقال وسجون العذاب الوحشى حيث لا يعرف أحد جريمته ولا يستطيع أن يبرىء نفسه أمام أحد • حيث جماعات لا تتواصل وليس من حقها أن تتصل •

ويأتى « بيكت » ومجموعته من أمثال « هارولد بنتر » ليصور لنا هذا البطل الذى ينتظر من لا يجىء أبدا • أو هذا الذى يحاول انقاذ صلة وهمية من النزع الأخير أو الذى يأسى على صلة لم تكن شيئا أبدا فى أى يوم من الايام ويراها تموت بين يديه رغم ذلك • ويتأثر المسرح بنفس هذا النبأ فى تصوير الشخصية والحدث وكذلك السينما تتأثر هى الأخرى فتخرج فى السنوات الأخيرة فلم « هيرنباد » أو « هيروشيما حبى » • ولكن الرواية تتفوق على المسرح وعلى السينما فى هذا : فى أنها تستطيع أكثر من المسرح والسينما أن تصلب أحوالا عقلية ومواقف نفسية لا يمكن أن نحشرها حشرا فى حوار ينطقه ممثل أو حركة يتحركها فى نطاقها • ان الشخصيات الخيالية يمكن أن تكون شخصيات من مسرح العرائس لا أصل لها ، ولكن الأحوال النفسية والعقلية حقائق ووقائع • وعلى هذا يتجه الروائيون فى جهد رائد متحد صامد الى اكتشاف الحقائق عن النفس حقائق الذات الانسانية التى لا يمكن الا للرواية أن تكتشفها ، والا لوسيلة الرواية الفذة أن تحرز أى نصر فى سبيل الوصول الى أعماقها •

وليس كل ما فى الرواية الجديدة جديدا كله • ان العناية بالعادى لم يبتكرها الروائيون الجدد ، فمنذ قديم كان الروائيون يلاحظون بدقة كيف تسير الحياة وكيف تفود فى بطء ورفق الى مأساة الموت • ولقد حاولوا الكثير فى سبيل تحسين الوسائل والطرق الفنية وكل ما هو جديد فى هذا المضمار بل كل ما هو أحدث ما وصلوا اليه ينذر بأنه أصبح مجرد حيل والاعيب ، ومن هنا جاء جديد الروائيين الجدد فى أنه ليس اتقان أداة أو تحسين وسيلة ، وانما هو نظرة جديدة من زاوية جديدة وانفساح أمام الرواية كانفساح المجال أمام الحياة نفسها • ولقد يتعلق القارىء بروائيين قدامى لا يمكن أن يتفوق عليهم أحد فيما أتقنوه من جوانب فى الفن الروائى ، أو قد يحبونهم على ما هم عليه كما نحب أحيانا صديقا على عيبه بل نحب عيبه •

ان الجهود التى بذلت للتفوق على الروائيين القدامى ترجع أيضا الى عصـــور سابقة و « ميشال بوتر » يرجع الفضل فى طريقته الحديثة الى جرأة بلزاك أو صراحته القاسية •

ونظن حماسة الروائيين الجدد ليست من هذا القبيل • انهم يؤمنون ايمانا وثيقا (وحماستهم تتدفق تدفقا فيما يكتبون) بأن امكانيات الرواية لا حدود لها لأن الحياة نفسها لا حدود لها • والرواية تستشرف عالما فسيحا رحبا لا يحده ماض ولا حاضر ولا مستقبل • أما ماذا يخبىء لهم القدر أو الغد ، واما ماذا يمكن أن يفيدوه من الفرص التى ستتسنح لهم فان هذا كله لا يمكن أن يحد الا بمقدار ما يمكن أن نحدد حياة الانسان على هذه الأرض بل على الأرض وفى الفضاء • انهم واثقون انهم سيجدون دائما أبدا شيئا قد تركه من سبقوهم ، ولهذا فهم واثقون أن الروائى سيقدم دائما لقارئه مثارات للعجب وللتساؤل وللشك ، بل سيقدم فرصا أوسع لمزيد من العلم ومزيد من الأمل فى علم جديد يكشف كل يوم غطاء جديدا عن سر الحياة •• وقول فلوبير الذى مايزال الروائيون الجدد يتمثلون به هو : ان مهمة الرواية الأسمى الأحق والأعمق هى فى أن تكشف دائما عن الجديد • والخطيئة الكبرى التى يمكن أن يقع فيها الروائى هى تكرار ما سبق أن اكتشفه السابقون » •

وهكذا تبهت أمام هؤلاء المحدثين كل المحاولات الســـابقة للهجوم على عـالم فسيح ودنيا رحبه وتصوير كل ما شاءوا وكيفما شاءوا جوانب هذا الانســـان من خلال نفسه ، ومن خلال ما حوله ، ومن خلال الآخرين ، بل من خلال ما يصدر عنه من مؤثرات فى غيره وما يتلقى فى الوقت نفسه من مؤثرات من الغير •